



Zoulikha Benramdane.- *Al-mujtama' wa-aldin wa-alsultah ft Ifriqiya al-Gharbiyya ma bayn al-qarnayn 5 wa 10 H-11 wa 16 M* (Rabat: Manshurāt wizārat al'awqāf wa-shuūn al-islāmiyya, 2015) 2. Vols. 772p.

زوليخة بنرمضان.- المجتمع والدين والسلطة في إفريقيا الغربية ما بين القرنين 5 و10 هـ و11 و16م، (الرباط: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 2015)، في جزأين، 772 ص.

بعد مرحلة إشباع التاريخ الوطني المرتبط

بصيرورة نشأة الدولة الوطنية، توجهت العناية التاريخية إلى المحيط الجغرافي الشرقي والشمالي، ثم جاءت رياح مدرسة الحوليات لترسخ انشغال الباحثين المغاربة بالضفاف الدافئة للبحر الأبيض المتوسط. وحينما بدأ التطلع إلى رؤية الفضاء الصحراوي وما يوجد جنوبه من أصقاع، كانت العواصف الرملية تؤلم البصر فيما كان السراب يشوش على وضوح الرؤية، وتدرجياً أخذت الصحراء تشكل سورا حديديا بين الوحدات السياسية القائمة على ضفتيها منذ ما قبل بداية التاريخ الميلادي.

وفي سياق هذه المحددات والتحديات يأتي عمل الأستاذة زوليخة بنرمضان الصادر في جزأين، ضمن منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية سنة 2015، تحت عنوان: المجتمع والدين والسلطة في إفريقيا الغربية ما بين القرنين 5 و10 هـ- 11 و16م، وقد أعدته الباحثة لنيل دكتوراه الدولة، وناقشته في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بوجدة عام 2005، تحت إشراف ذ. حسن الفكيكي. وتجدر الإشارة إلى أن السنوات العشر الفاصلة بين تاريخي المناقشة والنشر (2005-2015)، أتاحت لها فرصة المراجعة وتعميق النظر في عدة قضايا، ناهيك عن تلبية رغبتها المتواصلة في مواكبة المستجدات على الساحة الوطنية أو الدولية، فجاءت الدراسة المنشورة متميزة ومستوفية شروط العمل الأكاديمي.

وبالنظر إلى مسار حقل الدراسات الإفريقية بالمغرب، يمكن تصنيف زوليخة بنرمضان كما هو الشأن مع بهيجة الشادلي وخالد شكاروي وسامي سعيد وأحمد

الشكري، ضمن عناصر الجيل الثاني الذي أخذ المشعل عن الرواد في الميدان من أمثال مصطفى ناعمي وفاطمة الزهراء طموح وعبد العزيز العلوي، الذين بدأوا أعمالهم في فرنسا وأنها في المغرب. وبناء عليه، يمكن التأكيد على أن الجيل الثاني يمثل صناعة محلية خالصة للجامعة المغربية.

كانت البداية صعبة للغاية في ظل قلة عدد المؤطرين، مما فرض على المهتمين خلال العقدين الأخيرين من القرن العشرين نزوعا نحو الاعتماد على الذات في سبيل تحصيل تكوين عصامي. ومما زاد الأمر صعوبة، ربما هو انشغال جيل الرواد وأيضا الجيل اللاحق بقضية جوهرية تطلبت كثيرا من العناء والجهد، بغية النجاح في إقامة صرح الدرس العربي المتعلق بإفريقيا جنوبي الصحراء لسد حاجيات الطلبة بالجامعات المغربية في حقل دراسات تاريخ إفريقيا.

وفي هذا الإطار، أنجزت طيلة العقد الأخير من القرن الماضي سلسلة من الدراسات لنيل دبلوم الدراسات العليا (د. د. ع)، وما كاد العقد الأول من الألفية الثالثة أن يطل حتى بدأت الأسماء نفسها تدافع عن رسائل جامعية لنيل دكتوراه الدولة؛ ولو حاولنا المجازفة بتقييم جل رسائل دبلوم الدراسات العليا، لقلنا إنها تأثرت كثيرا بالمرورث المعرفي الفرنسي، ويبدو مثل هذا الأمر طبيعيا باعتبار ظروف البداية الصعبة التي ألمحنا إلى بعض جوانبها.

على أن الرسائل التي أنجزت بغرض نيل دكتوراه الدولة، حققت طفرة هائلة إن على مستوى الشكل أو المضمون، مما جعلها طبقا شهيا للمختصين والمهتمين في جل أنحاء العالم العربي وغيره من الجهات. وتناولت تلك الدراسات المجال الجغرافي لإفريقيا الغربية الممتد من المحيط الأطلنطي حتى بحيرة التشاد؛ وركزت على مواضيع مختلفة، شملت انتشار الإسلام بالمنطقة، والتجارة الصحراوية، وتاريخ الوحدات السياسية خلال العصر الوسيط والحديث، والطرق الصوفية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وأخيرا حركات مقاومة الاستعمار خلال القرنين التاسع عشر ومطلع القرن العشرين.

ويلاحظ المتتبع لهذا المسار، تطورا بالغ الأهمية لدى الجيل الثالث من المختصين، حيث نجدهم أكثر انجذابا نحو القضايا السياسية والاقتصادية المعاصرة لإفريقيا، كما توسع لديهم الاهتمام الجغرافي، فبات يشمل الجهات الشرقية والجنوبية للقارة الإفريقية،

وخاصة منها الأقطار المتأثرة باللغة الإنجليزية. ولعل التوجه الجديد، يحاول مواكبة الاستراتيجية الجديدة للمملكة المغربية تجاه أقطار القارة الإفريقية.

وبالعودة إلى عمل زوليخة بنرمضان، نلاحظ أنها جاءت لحقل الدراسات الإفريقية، بعد إعدادها لدراسة (د.د.ع) في فرنسا عام 1987 في موضوع مدينة سبتة خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين، ثم انتقلت في أطروحتها الأخيرة، إلى متابعة تاريخ الممالك السودانية خلال العصر الوسيط (غانة، مالي، سنغاي). وبالنظر لأهليتها، فقد تناولت الفترة المعنية بكفاءة أكاديمية متميزة، نتيجة إحاطتها بمجمل المواد المصدرية المتوفرة، ناهيك عن اطلاعها الواسع على جل الدراسات القديمة منها أو الحديثة، التي تناولت تاريخ الممالك السودانية خلال العصر الوسيط. ولعل أهم ما يميز هذه الدراسة طابعها الأكثر شمولية، علما أن بعض الباحثين المغاربة سبق لهم تقديم أعمال تهم وحدة أو وحدتين من هذه الوحدات السياسية الثلاث.

تقع الدراسة في جزأين يناهزان 772 صفحة، مقسمة على خمسة فصول وخاتمة إضافة إلى فهرس خاص بالمصادر والمراجع وآخر للأعلام البشرية والجغرافية. ودون الخوض في التفاصيل الدقيقة التي توقفت عندها زوليخة بنرمضان، وفصلت فيها على مستوى العرض أو التحليل، يمكن القول إنها تناولت جل التطورات كما عرفتها الممالك السودانية (غانة، مالي، سنغاي) على جميع الأصعدة، فضلا عن علاقاتها مع بعض الأقطار الإسلامية خاصة منها المغرب الأقصى أو البرتغاليين حين بداية اكتشافهم سواحل المحيط الأطلسي عند منتصف القرن الخامس عشر الميلادي. واللافت للنظر في هذا الاستعراض الدقيق والمفيد على امتداد ستة قرون (IX-XVI م)، اجتهاد الباحثة في تثبيت الخريطة الديمغرافية أو القبلية للسودان الغربي خلال العصر الوسيط، ثم عملها على توضيح العلاقات المختلفة لهذه الدول مع محيطها القبلي مثل الموسي والبنبرا والتوارق؛ ومثل هذا الأمر يعد إضافة قيمة لأهل الاختصاص والمكتبة العربية عموما.

وعلى هدي المدققين المتمرسين، نسجل انخراطا حيويا في مقارنة عدد غير قليل من الإشكاليات التي يطرحها تاريخ المنطقة، تميز بنوع من الروية وعمق نظر عز مثيلهما؛ نقف على ذلك أثناء تناول الباحثة لتاريخ مملكتي أودغشت وزافون، اللتين ذابتا في الإمبراطورية المرابطية، ثم حين مقاربتها لقضية الغزو المرابطي لمملكة غانة، وأيضا عند تناولها مسألة مفهوم الدولة بإفريقيا الغربية. وفي هذا الجانب، يعد الفصل الرابع الذي جاء تحت عنوان الحدود والجوار (من 345 إلى 491) من أخصب فصول هذا الكتاب،

ليس فحسب من حيث التأصيل التاريخي، وإنما أيضا من حيث الذكاء المنهجي في التعامل مع من يزعم أو يدعي، صراحة أو ضمنا، بأن إفريقيا جنوبي الصحراء لم تعرف طوال تاريخها مفهوم الدولة إلا مع الاستعمار الأوروبي.

إن كل مغامرة تتجرأ على ولوج عوالم الصحراء برسم الاستقصاء التاريخي لما يوجد جنوبها، تقهره قلة العناصر الإخبارية المدونة وتخطئه، وحينما يمتلك الدارس القلق ويغشاه الشك والتردد، يأتي القوَال (Griot) أو "صاحب الكلام" بتعبير المؤرخ التنبكتي عبد الرحمن السعدي (ت. 1656) ليهون الأمر، ولكن أيضا ليدعو المهتم إلى التخلي عن كل التجارب التي وقع تراكمها في الكتابة التاريخية ضمن منظومة تقاليد التدوين، وليحفز على معانقة قواعد منظومة الثقافة الشفاهية، التي شكلت أساس جل الإنتاج المعرفي بالمنطقة. وههنا، ندين للباحثة بنرمضان بالفضل الكبير لاجتهادها في توظيف الرواية الشفوية واعتمادها إلى جانب المواد المصدرية المدونة في سبيل رسم كثير من الملامح التاريخية لإفريقيا الغربية خلال الفترة المعنية سواء كانت صبغتها سياسية أو اقتصادية أو ثقافية. وباتخاذ هذا السبيل والتأكيد عليه، يحس القارئ في ثنايا دراستها توجيهها للباحثين الشباب، يدفع في اتجاه احتضان الرصيد المعرفي للرواية الشفوية ومعانقته، ومنحه ما يستحقه من عناية على قدر المساواة مع رصيد المواد المصدرية المدونة سواء كانت عربية أو أوروبية.

ويكمن أصل كل المشاكل والإشكاليات المتعلقة بكتابة تاريخ إفريقيا قبل المرحلة الاستعمارية، في قلة العناصر الإخبارية وفقرها شكلا ومضمونا. ولا يسعنا في هذا الباب إلا التنويه بمدى شجاعة المؤلفة وجرأتها في خوض هذه التجربة الفريدة في حقل الدراسات الإفريقية. وفي المقابل، فإن ذات المعطيات، توضح أسباب تأخر المدرسة التاريخية المغربية في تعاملها مع تاريخ إفريقيا جنوبي الصحراء؛ والحال سيات مع كثير من الدول الإفريقية نتيجة انشغالها البالغ بأمر تقعيد الدولة الوطنية أو بسبب ضعف انفتاح النخب على فضاءات قارتهم. وفي هذا المسعى، يمكن القول بتحقيق هذه الدراسة اختراقا موفقا، فضلا عن تقديمها مساهمة جادة ومعتبرة في تأصيل الدرس العربي المتعلق بإفريقيا.

لقد تميزت هذه الدراسة بعدة جوانب إيجابية، غير أن مفهومها لحدود بلاد السودان أو إفريقيا الغربية حسب الاصطلاح المعاصر، جعل مملكة كانم-برنو الواقعة على حواف بحيرة التشاد خارج دائرة اهتمامها. وفي تقديري، فإن مفهوم بلاد السودان حسب

الجغرافيين والمؤرخين المغاربة لفترة العصر الوسيط لا يتوقف عند الفضاء الحوصي شرقا، وإنما يمتد ليشمل محيط بحيرة التشاد أو بحيرة كوري طبقا لتسمية الجغرافي ابن سعيد المغربي (ت. 1286م). ونظرا لندرة الدراسات المغربية حول تاريخ مملكة كان-برنو، فقد كان أملنا كبير في أن يتوسع الأفق الجغرافي للزميلة زوليخة بنرمضان ليشمل المنطقة المعنية.

ويتضح مما تقدم، أن اهتمامات جل الباحثين المغاربة ممن أخصبوا حقل الدراسات الإفريقية، قد انشدت نحو تاريخ إفريقيا الغربية خلال العصر الوسيط وأفاضت في ذلك لأسباب مختلفة، منها توفر مادة مصدرية عربية، مما أتاح لأهل لغة الضاد تألقا في قراءتها وتأويلها ومساءلتها. ونلاحظ في المقابل، كما نسجل أن القرنين السابع عشر والثامن عشر للميلاد من تاريخ المنطقة المعنية، لم يجدا لحد الآن العناية اللازمة بالجامعة المغربية. وأملنا كبير في الجيل الجديد من الباحثين للانكباب على دراسة هذه الفترة بشكل دقيق وورصين، ويقدم إفادات تلج بنا عصر الاستعمار (القرن XIXم) وما بعده بأسلوب ميسر وسلس. وغني عن البيان، أن مثل هذا التوجه كفيلا بأن يقلص الهوة ويشيد القنطرة المؤدية إلى فهم أعمق لأطروحة رائدة البحث في حقل الدراسات الإفريقية بالمغرب فاطمة الزهراء طموح التي ناقشتها في فرنسا سنة 1982 تحت عنوان: المغرب وإفريقيا الغربية خلال القرن XIXم، وتمكنت من نشرها بعد تنقيحها سنة 2017، ضمن إصدارات كلية الآداب بالرباط.

أحمد الشكري

جامعة محمد الخامس بالرباط